نفسه ، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافرا .

وكأن الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأنى أنا « أحد صمد » ، ولا أحد يعارضنى فى هذا الحكم ؛ لذلك يقول فى سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فمادام « هو الله أحد » فيكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، وستظل قولته دائمة أبداً . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » ، « ولله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « ولله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تُظِل ، والأرض تُقِل ، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، ومادام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟ « ولله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك المَلِك الذى لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه ؛ لا ، إن لله المُلْكَ وله القدرة .

« والله على كل شىء قدير » ثم يأتى بعد ذلك إلى تصور إيمانى آخر ليحققه فى النفوس بعد المقدمات التى أثبتت صدق الله فيما قال بواقع الحياة :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

سبحانه يريد أن يبنى التصور الإيمانى على جذور ثابتة فى النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذى يفاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل : بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا ؟ والله لو أن واحدا

استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب فى الميدان ليلا لوقف ليسأل : ما الحكاية ؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة ؟

ولذلك يجىء فى سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يجلى لنا قضية الإيمان بالفكر الإنسانى ، فلا ننتظر الواعظ فقط الذى يأتينا بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل :لو أن إنساناً وقعت به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسا ولأنه مجهد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبل أن يمد يده لينتفع بها ، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدَّع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحدا لم يدع صنعه . هذا الكون الذى نراه جميعا بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا ، إذن فالذى قال : إننى صنعته تسْلم له الدعوة ، حتى يأتى واحد آخر يقول : أنا الذى صنعته . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كأن الحق يقول : إن لم أكن أنا الذى خلقت فمن الذى خلق إذن ؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شىء تافه من عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ، كى يصنعوه ليفهموا أن كل شىء تم بخلقه ـ سبحانه ـ كوب الماء هذا شىء تافه أترف الحياة ، وقبل أن تتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم يكن هناك شىء يفرح ويثمر أنواباً بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة . فإذا كان هذا الشىء الصغير له صانع جال فى نواحى علوم شتى وفى المادة . ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تصهر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل[١] .

(١) قيل إن رمل سيناء من أفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت فى جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقل أحد : إننى صنعتها ، فيقول الحق : من الذى صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذى خلق السماء والأرض ؟ فماذا يفعل المسئول ؟ إنه يتخبط فى إجابته ثم فى النهاية لا يجد إلا الله .

وكأن السائل لا يطرح هذا السؤل إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أى أنها تسرّ النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لابد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

﴿ يُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أينْعَى الله على الخلق ويعيب عليهم أن يعدلوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَا أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذى خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسى ، ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسى فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَٰتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾

(سورة فصلت)

فلماذا باركت يا الله ؟ بارك الله فى الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُنتفع به فى استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً فى

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون فى الوديان ، والوادى هو المكان الذى يكون بين جبلين . ولماذا يكون الوادى خصباً بين جبلين ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تأتى بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحي . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغِرْين أو الطمى ، كالذى كان يأتى لنا من الحبشة ، والذى أحدث خصوبة وادى النيل .

إذن فالجبال هى مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعل الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سيلٌ واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا أنتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتى الجدب . ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنسانى تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادى ، ونعرف أن ضيق الوادى يكون فى أدناه ، واتساع الوادى فى أعلاه ، والجبل عكس الوادى . فضيق الجبل يكون فى القمة واتساعه فى القاعدة أى أن قمة الجبل أقل اتساعا من قاعدته . وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادى ، فيرفع من مستوى سطح الوادى ، وتتسع مساحة الوادى . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التى بين الجبال؛ لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية ، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة : « قومى الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله ينابيع فى الأرض ، فالإنسان يحفر فى مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفى موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لأننا نجد أن الماء العذب يأتى من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتصب فى البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يرتوى الناس من الظمأ بالماء ، ويريد للزرع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء فى بطن الأرض أو فى البحار ، وتأتى من بعد ذلك عملية التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحاباً ، ثم يمطر من بعد ذلك ماء عذبا . والقدر الذى خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طَوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان فى جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت فى فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنسانى به حوالى تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذى استنفد أسباب بشريته ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق فى موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التى أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأنّ هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعني أن هناك شيئاً يناقض شيئاً آخر أو يأتي بعد شيء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجيء الليل بعد النهار يعني اختلافهما أي كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل في أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنّ الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما في الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية ، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تنشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ؛ لأن لله إمداداً حين خلق من عَدَم ، وإمداداً حين أمدّ من عُدم ، وإمداداً آخر حينما يلقى على نعمته شيئاً من البركة ، فالذي أخذ نعمة الله التي سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتي منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

أنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خُلق أو هندام تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فأنت لا ترى فيها سوءاً أبداً ؛ لأنك رددتها إلى مَن خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذى يحرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا
خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ
أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾

(سورة الكهف)

فماذا قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩)
فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾

(سورة الكهف)

فكان يجب ألا يغتر الإنسان بوجود النعمة وأن يعزوها وينسبها ويردها إلى المنعم وهذا يوضح لنا معنى قول الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطيكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء فتكون حسرة عليك .

إذن فمَنْ هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

إنهم يقولون :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً » لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التى خلقتها لنا بالحق . فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال : إن المؤمن الصادق فى بنى إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار . فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظلله غمامة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعَبَدَ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فَرطَ منك . فقال لها : يا أماه لا أذكر . فقالت له : لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذى يأتيك من ذاك . وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير فى الله دائماً .

ويروى عن سيدنا الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ فى الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضا هو تأمل فى حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق . ولذلك فالعربى الذى استلقى على ظهره نائما ، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لى . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبدالله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لى الليلة فى عبادة ربى » ؟[1] .

لقد استأذن منها رسول الله فى حقها لأن الليلة ليلتها . وأضافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذِنتُ لَكَ .

لقد احتاطت الاحتياط الجميل ، فهى تحب الرسول ، وتقول : «وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه .

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن معاوية .

لكنها عائشة ـ رضى الله عنها ـ ردت على ذلك من قبل أن يقال . فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذى يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن ينشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة فى العبادة غير المفروضة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوعا ، أو صامت تطوعا لابد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فبها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم . . خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1]

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطلعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصا إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراده الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة فى عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها ليتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر .

لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان مع عمر صحابى جليل . فقال له عمر ابن الخطاب : افتها . فقال الصحابى للزوج : يا هذا سنفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة فى عبادة ربه ، فهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناسا لا يستأذنون أهلهم لا فى العبادة ، ولا حتى فى سهرات المعصية . وهذا ما يفسد البيوت والأسر . إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولا عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه فى المقهى أو فى مكان آخر . ولا يهتم بأفراد أسرته .

---

١ ـ رواه ابن ماجه والدرمى فى كتاب النكاح .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ وليشبع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس فى مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن عائشة رضى الله عنها فتأذن له . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قربة فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى . فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ
١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا
تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي
لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ

﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ
لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ
اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(سورة آل عمران)

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)[1] .

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله فى أواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التى تبدأ بقوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) .

إن فى تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولى الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وقال بعض العلماء فى تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلى قاعدا .. ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا .

(١) رواه البخارى فى التهجد ورواه مسلم والترمذى فى الصلاة والنسائى فى قيام الليل وابن ماجه فى الاقامة والإمام أحمد فى مسنده .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هي التي يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

أي إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كأن ذكر الله أمر متصل واجب في الصلاة ، وفي غيرها ، وبعدها يتفكر المؤمنون في خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلا . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا .. لذلك قالوا :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمن دخل النار . وكأن الخزى مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذى أعطانا كل هذا الفضل ، إنه - سبحانه - أعطانا توفيقا لذكره ، وتوفيقا لنتفكر فى خلق السموات والأرض ، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذى يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه الخزى والعياذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أى وليس لهم أنصار يمنعون عنهم عذاب النار .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾

فكأن الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجىء له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما فى الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة فى ذهنه . ما هى ؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا : إن تلك هى الزلة التى وقع فيها الفلاسفة ؛ لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مادى قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقى يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التى لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ فى مدرسة مع تلميذ آخر فى مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات لا يجامل فى هذه النتائج . فالذى يدخل التجربة العلمية فى المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذى يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا .

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد فى العلوم المادية فارقا بين علم شيوعى روسى ، وعلم أمريكى رأسمالى ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذى لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادى ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التى لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره ، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادى .

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع .

هم يقيمون الحواجز فى الأهواء ولكن فى العلم المادى يتحولون إلى لصوص . فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص علىٰ العداء مع مذاهب الغير فى الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم فى العلم المادى يسرق بعضهم بعضا ؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى - كما قلنا - يتبع الحقيقة المعملية التى لا تجامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول : إن وراء خلق الكون قوة خارقة . وقد عرفها العربى بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟!!

إنه دليل فطرى ، يدلك على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا نعرف . إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة . فإذا جاء واحد وقال : أنا مُرْسَلٌ من ناحية هذه القوة ، وأنَّ اسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس عليه ؛ لأنه سيحل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾

(سورة آل عمران)

كأن ذهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

(من سورة آل عمران)

فأول حاجة فكروا فيها هى درء المفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شيء ، و« السيئة » شيء آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

للحنث فى اليمين ، أما الأشياء التى تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهى الذنب ، والسيئة هى الأمر الذى يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية فى أمر بينك وبين الله-فأنت لم تسئ إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتى بعده العقوبة . أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهى سيئة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت .

لذلك فالمؤمنون قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا » .

ومن الذى هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ؛ وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير ؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذى علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالساً بين أصحابه فأخذته سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ فضحك .

فعن أنس رضى الله عنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحكٌ حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال يارب : لم يبق من حسناتى شىء ، قال : يارب يحمل عنى من أوزارى . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يُتَحَمَّل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللةً باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صِدّيقٍ هذا ؟ لأى شهيدٍ هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة »[1] .

(١) رواه أبو يعلى والحاكم وصححه ورواه السيوطى فى الدر المنثور وابن كثير فى التفسير .

هذا هو معنى التكفير أى أن نتحمل ، لذلك نقول فى الدعاء كما علمنا : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى » . أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد أبداً .

والعباد المؤمنون يقولون : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » أى اختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار . ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ولننر اللفتة الجميلة فى الاستجابة : « فاستجاب لهم ربهم أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ويخشون خزى الدخول إلى النار . ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات . ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه: استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هى قبول العمل فقال: « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل فى حيز التطبيق والنزوع العملى ؛ فالمسألة ليست بالتمنى فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلابد له من العمل . إن التفكر فى بديع صنع الله لا يغنى عن العمل ؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل فى أسبابه . فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هى نزع وجودى ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك فى سبيل الله. أى ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا فى سبيل الله وتحملوا الايذاء وقُتلوا ـ هؤلاء ـ ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التى تتضح فيها الأسوة الإيمانية ؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة ، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله فى سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فالمؤمن من هؤلاء لم يكتف بنفسه بل جاهد فى سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه .

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هى أن الفكر وحده لا يكفى وإذا قال واحد : إن إيمانى حسن فلا تأخذنى بالمسائل الشكلية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس فى حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله فى الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله فى الأرض ، أدمت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

وإذا ما سمعنا كلمة « تقلب الذين كفروا فى البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والقدرة على الحركة تكون فى مكان الإنسان وبلاده ، فإذا اتسعت قدرتك على الحركة وانتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقال عن هذا الإنسان : « فلان نشاطه واسع » أى أن البيئة التى يحيا فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته . لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم فى رحلات خارجها . لذلك قال الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا ينشأ عن : قدرة وحركة واتساع طموح . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن زخارف الحياة قد تأتى لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع الحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الانسان فى الوجود . ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها ؛

فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها نهاية . أما الذى يريد أن يُصَعِّدَ النعمة ويصعد النفع فهو يفعل العمل من أجل حياة لا تنتهى . والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى .

وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها من نواحيها وهى كما يلى : لا تقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها ، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد فى الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيرى ، فمالى ولها ، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة لبقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تقارنها بقولك : إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك ، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . فما بالك وعمرك فيها مظنون ؛ لأن الموت يأتى بلا سن ولا يرتبط بسبب أو بزمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة متيقن وهو إلى خلود .

إذن فعمر الإنسان فى الدنيا مظنون وعمره فى الآخرة متيقن ، والدنيا محدودة ، وفى الآخرة خلود ، ونعيمك فى الدنيا منوط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها . ولكن نعيمك فى الآخرة على قدر عظمة رَبّك وعطائه العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع الغرور . ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحقر من هذا ؟ إن الذين يغترون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم فى البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع . وعلينا أن نقارن التقلب فى البلاد بما أعده الله لنا فى الآخرة . وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة . .

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الذين كفروا فى البلاد :

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾

والمهد هو المكان الذى ينام فيه الطفل . ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم فى جهنم كما يريد ؛ لأنه لا قدرة لهم على أى شىء ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل ، يزال ملازما لفراشه ومهده حتى يقلبه ويحركه غيره . ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

والنزل هو المكان الذى يعد لنزول الضيف ، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر وفى احدى السفريات نزلنا فى فندق فاخر فقال لى زملائى وإخوانى :

هذا لون من العظمة البشرية .
قلت لهم : هذا ما أعده البشر للبشر ، فكيف بما أعده الله للمؤمنين ؟

وعندما ترى تقلب الكفار فى البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله فى تقلبهم ، وفى ذلك يقول :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور ، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة . والعذاب يأتى مرة بغتة ، ومرة أخرى جهرة . إنه يأتى بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له فى أى لحظة . ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة البقرة)

فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون ، فهم يرونه وهم فى فزع ورعب .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾